الخيل والليل والبيداءُ تعرفني

قال وقد جرى له خطاب مع قوم متشاعرين وظُن الحيف عليه والتحامل :

[البسيط]

وَا حَـرَّ قَـلْـبَـاهُ مِـمَّـنْ قَـلْـبُـهُ شَـبِـمُ
وَمَـنْ بِـجِـسْـمِـي وَحَـالِـي عِـنْـدَهُ سَـقَـمُ[١]
مَـا لِـي أُكَـتِّـمُ حُـبًّـا قَـدْ بَـرَى جَـسَـدِي
وَتَـدَّعِـي حُـبَّ سَـيْـفِ الـدَّوْلَـةِ الْأُمَـمُ؟[٢]
إِنْ كَـانَ يَـجْـمَـعُـنَـا حُـبٌّ لِـغُـرَّتِـهِ
فَـلَـيْـتَ أَنَّـا بِـقَـدْرِ ٱلْـحُـبِّ نَـقْـتَـسِـمُ[٣]
قَـدْ زُرْتُـهُ وَسُـيُـوفُ الْـهِـنْـدِ مُـغْـمَـدَةٌ
وَقَـدْ نَـظَـرْتُ إِلَـيْـهِ وَالـسُّـيُـوفُ دَمُ[٤]

---

(١) ورد البيت في: شرح المفصل، لابن يعيش ١ : ٤٤، التصريح بمضمون التوضيح، للشيخ خالد ٢ : ١٨٣. شبم: بارد. يبدأ الشاعر قصيدته بمطلع وجداني، حيث يظهر تأفّفه وألمه ممَّا يعانيه؛ فقلبه تلتهمه نيران الألم والغضب، وفي المقابل قلب بارد لا يهتمّ لأمره ولا يشعر بألمه، إنه مريض يُعاني عزلة نفسية في بلاط كلّ من فيه على علاقة سيّئة معه، وعلى رأس تلك الحاشية أميرهم وسيّدهم، فقد بردت مشاعره حتى تجمّدت نحو الشاعر.

(٢) أكتم: أخفي. برى: أنحل، أضنى. إنّها مكاشفة عن حقيقة مشاعر الشاعر نحو الأمير، فلا بدّ من تحديد معالم العلاقة بين كلّ منهما؛ فالشاعر يُخفي حبّه الصادق الخالص، بينما الآخرون يُظهرون حبًّا مُزيفاً فيه مراءة وخداع، ولطالما أضناه ذلك الحبّ الذي يعمل باستمرار على كتمانه.

(٣) الغرّة: الطلعة. الحبّ يتطلّب التكريس والإخلاص والصدق، فلو كان ذلك الحبّ القاسم المشترك بين المتنبي وسواه ممّن يدّعون حبّه ويهيمون بغرّته، لذا فإنه يتمنّى لو كانوا يقتسمون أفضاله وحبّه لهم في ما بينهم ليحوز الشاعر على القدر الأوفر والنصيب الأكبر.

(٤) يُنوّه الشاعر بدوره الإيجابي، فقد طالت صحبته للأمير زمناً، بحيث كان إلى جانبه في حروبه وشاركه انتصاراته وفرحه، في مختلف المناسبات، كما أنه كان إلى جانبه في السلم، فشاركه أفراحه وأتراحه. والحقّ أن فضل المتنبي على الأمير عظيم، فقد خلّد أعماله الحربية العظيمة في شعره، فكانت نبراساً يُقتدى في الشعر العربي.

فَكَانَ أَحْسَنَ خَلْقِ ٱللَّهِ كُلِّهِمِ
وَكَانَ أَحْسَنَ مَا فِي الْأَحْسَنِ الشِّيَمُ(١)
فَوْتُ الْعَدُوِّ الَّذِي يَمَّمْتَهُ ظَفَرٌ
فِي طَيِّهِ أَسَفٌ فِي طَيِّهِ نِعَمُ(٢)
قَدْ نَابَ عَنْكَ شَدِيدُ الْخَوْفِ وَاصْطَنَعَتْ
لَكَ الْمَهَابَةُ مَا لَا تَصْنَعُ الْبُهَمُ(٣)
أَلْزَمْتَ نَفْسَكَ شَيْئاً لَيْسَ يَلْزَمُهَا
أَنْ لَا يُوَارِيَهُمْ أَرْضٌ وَلَا عَلَمُ(٤)
أَكُلَّمَا رُمْتَ جَيْشاً فَانْثَنَى هَرَباً
تَصَرَّفَتْ بِكَ فِي آثَارِهِ الْهِمَمُ؟(٥)

---

(١) الشيم، الواحدة شيمة: الأخلاق. أثنى الشاعر على الأمير بأنه ذو خلق رفيع سما به إلى المعالي في سائر أحواله، ولا بدّ من توفّر من يُشيد بتلك الشيم الرفيعة وبخاصّة في حالات التحوّلات الخطيرة في تاريخ الأمة كالفترة المضطربة التي عاصرها المتنبي والأمير.

(٢) و (٣) يمّم: يقصد. الأسف: الحزن. يذكر الشاعر حرص الأمير على ملاحقة أعدائه من ملوك الروم، فأحد هؤلاء استطاع الفرار والنجاة بنفسه وجيشه، ولا بدّ أن يُثير ذلك أسف الأمير فقد فاتته الفرصة للتخلّص من عدوّ ماكر؛ ويرى الشاعر أن في فرار هذا الجبان توفير مؤنة على الأمير وجيشه بحيث لم يُكلّف ذلك مشقة فحفظ أرواحاً وتلافى خسائر، فكانت النعم الإلهية، لأن هيبة الأمير وقوّة سطوته أرعبت عدوّه فآثر الحياة على الموت وارتحل لشدّة خوفه؛ فكانت هيبته أشدّ مضاضةً في نفوس أعدائه وأبطاله البهم الذين فاقت شجاعتهم كلّ جند عدوّ الأمير.

(٤) يواريهم: يسترهم. العلم: الجبل. يُردف الشاعر مخاطباً الأمير أنه ألزم نفسه بملاحقة أعدائه حيثما حلّوا في الجبل والأرض، فلا مفرّ أو ملجأ يحميهم من سطوته، وظهوره عليهم أمر طبيعيّ، ولا يكفي أن يتركهم أحياء، فعليه أن يُعمل فيهم قتلاً وسفك دماء.

(٥) رمت: طلبت. انثنى: ارتدّ. ينوّه الشاعر بعادة اتبعها الأمير مع أعدائه، فلا تكفيه هزيمتهم والوقوع بقبضته بهمته وإصراره على النيل منهم، مهما حاولوا الهرب =

عَـلَـيْـكَ هَـزْمُـهُـمُ فِـي كُـلِّ مُـعْـتَـرَكٍ
وَمَـا عَـلَـيْـكَ بِـهِـمْ عَـارٌ إِذَا انْـهَـزَمُـوا[١]
أَمَـا تَـرَى ظَـفَـراً حُـلْـواً سِـوَى ظَـفَـرٍ
تَـصَـافَـحَـتْ فِـيـهِ بِـيـضُ الْـهِـنْـدِ وَالـلَّـمَـمُ[٢]
يَـا أَعْـدَلَ الـنَّـاسِ إِلَّا فِـي مُـعَـامَـلَـتِـي
فِـيـكَ الْـخِـصَـامُ وَأَنْـتَ الْـخَـصْـمُ وَالْـحَـكَـمُ[٣]
أُعِـيـذُهَـا نَـظَـرَاتٍ مِـنْـكَ صَـادِقَـةً
أَنْ تَـحْـسِـبَ الـشَّـحْـمَ فِـي مَـنْ شَـحْـمُـهُ وَرَمُ[٤]

= والتخفي، بل إنه يزيد بطشاً وعنفاً، لذا فإن حسبه أن يُوقع بهم لا أن يُعمل فيهم قتلاً، وهذا يكفيه فخراً.

(١) المعترك: ميادين المعركة. يُردف الشاعر متمًّا فكرته أنه تكفيه هزيمتهم إذا التقى بهم في ساحة المعركة، ولا لوم عليه لأنهم هم الذين جرّوا على أنفسهم المصير المحزن، وفي حال فرارهم يجرّون معهم هزيمتهم خوفاً من بطشه ليلحقوا بديارهم، فعليه ألّا يُحسّ بالندم.

(٢) بيض الهند: السيوف المصنوعة في بلاد الهند. اللمم، الواحدة لمّة: الشعر الذي ألمّ بالمنكب. يركّز الشاعر على مفهوم النصر لدى الأمير، فلا يكفيه أن ينتصر على عدوّه، بل من متمّمات النصر ومستلزماته الإمعان في قتل أعدائه بإعمال سيوف جنوده برؤوس أولئك الأعداء حتى تتمّ فرحته بخلاصه منهم، وإلّا فالنصر يكون ناقصاً غير تامّ.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٦. يستحضر الشاعر مشكلته أمام الأمير، فالأمير عادل، وعدله مطلق يسود سائر الرعيَّة، ولكنّه الآن يلجأ إلى الظلم، ويتمثّل ذلك في معاملة الشاعر، والمتظلّم، عادة، يشكو ظالمه إلى من هو فوقه وبيده ردّ المظالم إلى أصحابها، لذا فإنه يستعدي الأمير على الأمير لينتصف منه لنفسه.

(٤) يتوسّم الشاعر بالأمير حسن الحكم، إنه ذو نظرات صائبة تنمّ عن ذكاء حادّ ورأي ثاقب ومعرفة ببواطن الأمور؛ فالظواهر قد تخدع لأول وهلة، والنظرة العجلى تنمّ عن تسرّع وفساد رأي، فالورم لا يعني شحماً وسمنة، بل إنه يعني مرضاً دفيناً وموتاً أكيداً.

وَمَـا انْـتِـفَـاعُ أَخِـي الـدُّنْـيَـا بِـنَـاظِـرِهِ
إِذَا اسْـتَـوَتْ عِـنْـدَهُ الْأَنْـوَارُ وَالـظُّـلَـمُ؟(١)
سَـيَـعْـلَـمُ الـجَـمْـعُ مِـمَّـنْ ضَـمَّ مَـجْـلِـسُـنـا
بِـأَنَّـنِـي خَـيْـرُ مَـنْ تَـسْـعَـى بِـهِ قَـدَمُ(٢)
أَنَـا الَّـذِي نَـظَـرَ الْأَعْـمَـى إِلَـى أَدَبِـي
وَأَسْـمَـعَـتْ كَـلِـمَـاتِـي مَـنْ بِـهِ صَـمَـمُ(٣)
أَنَـامُ مِـلْءَ جُـفُـونِـي عَـنْ شَـوَارِدِهَـا
وَيَـسْـهَـرُ الْـخَـلْـقُ جَـرَّاهَـا وَيَـخْـتَـصِـمُ(٤)

(١) يُردف الشاعر رأيه في كشف بواطن الأمور في مدعاه؛ فالنظر حاسة معرفة وعلم يكاد يكون يقينيًا، والانتفاع بهذه الحاسّة ضروري وذلك في حال اشتباه الأمور على المرء يرجع إليها عند الحاجة ليتبيّن له الحقّ من الباطل وتنجلي الأمور على حقيقتها؛ فالنور هداية والظلمة عمًى، والفرق بينهما جليّ للعيان، ولا يستويان في نظر اللبيب الأريب.

(٢) انفلت الغضب لدى الشاعر، فإذا به يتخلّى عن حذره في حضرة الأمير ويلجأ إلى التبجّح والفخر الممجوج في مجلس يحتوي خيرة رجالات العصر آنئذٍ، إنه أفضل من في ذلك المجلس حزماً وذكاءً وعلماً وشاعرية، فكلّ أبواب ذوي السلطان مفتوحة في وجهه حيثما ارتحل وحلّ.

(٣) ومن مغالاة الشاعر في فخره أن العمى فقد طبيعته لدى صاحبه، فإذا بشعر المتنبي يُفتّح مغاليق عينيه ويُبصر عظمة ذلك الشعر، وحتى الأصمّ الذي فقد حاسّة المعرفة لديه تفتّقت مغاليق أذنيه، فاخترقتها بلاغة شعر المتنبي فأيقظت ما كان نائماً في أحضان جهل أمثال هؤلاء، وإذا كان أثر شعره بأمثال هؤلاء، فكيف يكون أثره في من يُبصر ويسمع؟

(٤) الشوارد: النافر من كل شيء، فلا يخطر ببال، الاختصام: التجاذب بعنف. يُنوّه الشاعر بقدرته العجيبة في الإنشاد، فالأمر لديه سهل يأتيه بلا إعمال فكر، كأنه ينبوع يفيض بلاغة وحكمة خلاف غيره ممّن يدّعون بأنهم شعراء؛ فهم يسهرون ويُعملون أفكارهم ويتعبون، ويتخاصمون، فكل منهم يدّعي القدرة على الشعر، فتأتيه الأبيات أرسالاً.

وَجَاهِلٍ مَدَّهُ فِي جَهْلِهِ ضَحِكِي
حَتَّى أَتَتْهُ يَدٌ فَرَّاسَةٌ وَفَمُ(١)

إِذَا رَأَيْتَ نُيُوبَ اللَّيْثِ بَارِزَةً
فَلَا تَظُنَّنَّ أَنَّ اللَّيْثَ يَبْتَسِمُ(٢)

وَمُهْجَةٍ مُهْجَتِي مِنْ هَمِّ صَاحِبِهَا
أَدْرَكْتُهَا بِجَوَادٍ ظَهْرُهُ حَرَمُ(٣)

رِجْلَاهُ فِي الرَّكْضِ رِجْلٌ وَالْيَدَانِ يَدٌ
وَفِعْلُهُ مَا تُرِيدُ الْكَفُّ وَالْقَدَمُ(٤)

---

(١) مدّه: أهمله. فرّاسة: بطّاشة. يعرض الشاعر سياسته التي يتّبعها مع سواه من الشعراء؛ فمن تعاليه تجاهله لمن يعتبره جاهلاً في الصناعة الشعرية ويتوهّم أنه ينطبق عليه مفهوم مصطلح شاعر، وفي لحظة لم يحسب لها حساباً تأتيه صفعة العدم ممّن تمرّس في عالم الشعر والنبوغ فتقضي عليه فتُردي به في عالم النفايات.

(٢) وردت الأبيات الثلاثة المتوالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٦. يروى «نظرت» بدلاً من «رأيت». الليث: من أسماء الأسد. يُردف الشاعر قوله أن نظر الجاهل قد يخدعه لقلّة فطنته وغبائه أن يظنّ تكشيرة الأسد عن أنيابه تبسماً، إنه في حقيقة الأمر استعداد للانقضاض والافتراس، لجأ الشاعر إلى تمثيل حالته مع الجهلة الذين تخدعهم نظراته، فإنها تُبطن غير ما تُظهر من ازدراء وتعالٍ واحتقار.

(٣) المهجة: الروح. الجواد: الفرس الكريم. الحرم: ما يجتنب انتهاكه. نظرة العداء هي التي تتحكّم بمشاعر الشاعر وأحاسيسه، فقد جعل لنفسه حسّاداً وأعداءً بمسلكه المتعالي، ولا ريب أن بعض هؤلاء يودّ الانتهاء منه بأيّة وسيلة ممكنة، ومنهم من يسعى إلى قتله جاهداً. فما كان من الشاعر إلّا أن سارع إلى مبادرته بعدائه فقضى عليه وهو يمتطي جواداً لا يقدر أحد على امتطائه، وقد تحكّم الشاعر من متنه، ممّا يدلّ على فروسيته وقوّته.

(٤) يصف الشاعر فرسه في عدوه، فرجلاه في الركض كأنهما رجل واحدة، فهو يرفعهما معاً ويضعهما معاً، وكذلك الأمر بيديه. وهو رهن أمر فارسه في كلّ ما يطلبه منه في المعارك والصيد وسواهما.

وَمُرْهَفٍ سِرْتُ بَيْنَ الْجَحْفَلَيْنِ بِهِ
حَتَّى ضَرَبْتُ وَمَوْجُ الْمَوْتِ يَلْتَطِمُ[١]
أَلْخَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالْبَيْدَاءُ تَعْرِفُنِي
وَالسَّيْفُ وَالرُّمْحُ وَالْقِرْطَاسُ وَالْقَلَمُ[٢]
صَحِبْتُ فِي الْفَلَوَاتِ الْوَحْشَ مُنْفَرِداً
حَتَّى تَعَجَّبَ مِنِّي الْقُورُ وَالْأَكَمُ[٣]

---

(١) المرهف: السيف الرقيق الشفرتين. الجحفل: الجيش اللجب العظيم. يُشيد الشاعر بقوّته وشجاعته، فقد امتلك سيفاً رقيق الشفرتين يضرب به كيفما اتّفق له، وهو يمرق مروق السهم بين جيشين عظيمين، وقد التحما، وقامت الحرب على أشدّها، وهو يمعن قتلاً وسفكاً بالأعداء غير هيّاب، ونشوة النصر تشدّ من عزيمته.

(٢) ورد البيت في شذور الذهب، لابن هشام: ١٥. يروى «فالخيل» بدلاً من «الخيل». ويروى «تشهد لي» بدلاً من «تعرفني». ويروى «الضرب والطعن» بدلاً من «السيف والرمح». البيداء: المفازة، الفلاة. القرطاس: الصحيفة. يعدّد الشاعر ميادين تفوّقه على من سواه، لقد كان فارساً عظيماً، عالماً بفنون الفروسية، ذا خبرة بطبيعة الخيول، والمعرفة مشتركة بينه وبينها. ولقد عرفه الليل، إنه يسري في وحشته وظلمته، حيث لا أنيس ولا رفيق، والمفازة تمتدّ وتمتدّ والوحوش الكاسرة تتربص بأي شيء يتحرّك لتفترسه، ولطول الصحبة بينها وبين الشاعر نشأت صداقة وتحوّل الاستيحاش إلى تآلف ومعرفة، وحتى العتاد الحربي من سيوف ورماح لطالما استعملهما فكانا خير حام ومساعد فرّج كربته وقت الأزمات، أما العلم فحدّث عنه ولا حرج، لقد اقتطف منه الشيء الكثير، فالتراث الشعري منذ الجاهلية حتى أبي تمام نهل منه، فضلاً عن معرفته لتاريخ العرب كذلك، كما أنه كان على علم ببعض العلوم الدخيلة، مع تركيزه على شيء من فلسفة اليونان في الأمثال والحكم، بلا ريب فإنّ رصيد الشاعر كبير في هذا المجال.

(٣) الفلوات، الواحدة فلاة: القفار الموحشة. القور، الواحدة قارة: أصاغر الجبال وأعاظم الآكام. يُنوّه الشاعر بجرأته، لقد اعتاد على الأسفار في رحلة الغنى، فإذا به يخترق الآفاق وحيداً، بلا مؤنس سوى الطبيعة بقسوتها، حيث تآلف مع وحوش الفلوات، فاستفاقت القور والآكام متعجّبة من جسارته، فقلّما أحست بوجود آدمي في جنباتها وأركانها.

يَـا مَـنْ يَـعِـزُّ عَـلَـيْـنَـا أَنْ نُـفَـارِقَـهُـمْ
وِجْـدَانُـنَـا كُـلُّ شَـيْءٍ بَـعْـدَكُـمْ عَـدَمُ(١)
مَـا كَـانَ أَخْـلَـقَـنَـا مِـنْـكُـمْ بِـتَـكْـرِمَـةٍ
لَـوْ أَنَّ أَمْـرَكُـمُ مِـنْ أَمْـرِنَـا أَمَـمُ(٢)
إِنْ كَـانَ سَـرَّكُـمُ مَـا قَـالَ حَـاسِـدُنَـا
فَـمَـا لِـجُـرْحٍ إِذَا أَرْضَـاكُـمُ أَلَـمُ(٣)
وَبَـيْـنَـنَـا لَـوْ رَعَـيْـتُـمْ ذَاكَ مَـعْـرِفَـةٌ
إِنَّ الـمَـعَـارِفَ فِـي أَهْـلِ الـنُّـهَـى ذِمَـمُ(٤)

---

(١) ورد البيتان الأولان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٦. يُخاطب الشاعر الأمير بعد هذا التباهي والفخر ملمحاً إلى أمر يلوح في أفق حياته؛ إنه الافتراق بعد رحلة الاطمئنان والاستقرار في كنف الأمير، فقد نعم بعطاياه ورفده وحمايته، وهذا ما يجعله يتردّد باتّخاذ قرار خطير في حياته، وهو في داخلة نفسه على يقين أنه في حال رحيله لن يهدأ له بال، ومن هنا كان تردّده.

(٢) الأمم: القريب. يستثير الشاعر في نفس الأمير داعي الكرم والحبّ اللذين يتمتّع بهما نحوه، إنه يستحقّ ذلك منه بكرمه. والحقّ أن اسم المتنبي قد ارتبط باسم سيف الدولة، رغم كثرة ممدوحي المتنبي، والمشكلة في منتهى البساطة، وتناولها قريب لا يُكلّف الأمير شيئاً سوى الرعاية والودّ.

(٣) ورد البيتان المتواليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٧. يُخاطب الشاعر الأمير، فسروره بسبب مقالة حاسد يُشنّع على الشاعر في أقواله ممّا أضحك الأمير وحمله على السخرية منه، فضلاً عن جرح أصابه فسال دمه، ومع ذلك بقي الشاعر متماسكاً يتابع إنشاده، فالمهمّ بالنسبة إليه سرور الأمير، والجرح بسيط لا ألم له عند الشاعر. وهذا بلا شكّ يدل على رباطة جأش المتنبي وتخطيه حالات حرجة مماثلة.

(٤) النهى: الواحدة نهية: العقول. الذمم: العهود. يركّز الشاعر على إثارة نخوة الأمير؛ فالحبّ يربطه بالأمير، وهو يُخلص الحبّ له، والمعرفة التي طال أمدها بينهما تكشف حقيقة الشاعر ومدى إخلاصه، والأمير لا تنقصه المعرفة، فهو الخبير بطبيعة البشر، وبإمكانه أن يرجع إلى عقله ويُفكّر ملياً، وبذلك لن يضيّع ما سلف من ودّ وحب في حال فكر بعواقب الأمور.

كَـمْ تَـطْـلُـبُـونَ لَـنَـا عَـيْـبـاً فَـيُـعْـجِـزُكُـمْ
وَيَـكْـبَـرُهُ الـلَّـهُ مَـا تَـأْتُـونَ وَالْـكَـرَمُ[١]

مَـا أَبْـعَـدَ الْـعَـيْـبَ وَالْـنُّـقْـصَـانَ عَـنْ شَـرَفِـي
أَنَـا الـثُّـرَيَّـا وَذَانِ الـشَّـيْـبُ وَالْـهَـرَمُ[٢]

لَـيْـتَ الْـغَـمَـامَ الّـذِي عِـنْـدِي صَـوَاعِـقُـهُ
يُـزِيـلُـهُـنَّ إِلَـى مَـنْ عِـنْـدَهُ الـدِّيَـمُ[٣]

أَرَى الـنّـوَى تَـقْـتَـضِـيـنِـي كـلَّ مَـرْحَـلَـةٍ
لَا تَـسْـتَـقِـلُّ بِـهَـا الْـوَخَّـادَةُ الـرُّسُـمُ[٤]

لَـئِـنْ تَـرَكْـنَ ضُـمَـيْـراً عَـنْ مَـيَـامِـنِـنَـا
لَـيَـحْـدُثَـنَّ لِـمَـنْ وَدَّعْـتُـهُـمْ نَـدَمُ[٥]

---

(١) يُخاطب الشاعر حاشية الأمير ممّن كان يعتقد أنهم يتعقّبون سقطاته ليعيبوا عليه ذلك، ولكن اللّه عزّ وجلّ جعله مبرّأً من كلّ عيب، فضلاً عن كرم أخلاقه التي تحول بينه وبين وقوعه في السقطات المعيبة.

(٢) ورد البيتان المتتاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٧. ينفي الشاعر عن نفسه النقصان، ويتجسّد فيه الكمال الإنساني المطلق، لذا فإنه يبعد عن النقصان والعيب كما يبعد عن الثريا ذلك النجم الذي يتربّع في عرش السماء وبين الشيب رمز العجز والهرم رمز النهاية المفجعة لبني البشر.

(٣) الغمام: السحب المليئة بالمطر. الصواعق، الواحدة صاعقة: الموجات النارية التي تصحب الرعد الشديد. الديم، الواحدة ديمة: المطر الدائم الهادئ. يتمنّى الشاعر على الأمير الجواد الذي يرميه بصواعقه النارية المهلكة أن يحوّلها إلى من عنده ممّن ينعمون برفده وبرّه فيستوي الفريقان في العدالة والنصفة.

(٤) النوى: البعد. تقتضيني: تطلب منّي. الوخد والرسم: ضربان من السير. يُعلّل الشاعر أسباب تردّده في ما سيُقدم عليه؛ مراده رحلة بعيدة المدى تتطلّب منه جهداً عنيفاً ووقتاً عظيماً، وتحتاج إلى إبل شديدة تقطع المسافات بسرعة فتؤثر في الأرض بأخفافها لسرعتها الفائقة.

(٥) ضمير: جبل عن يمين الراحل من بلاد الشام إلى مصر قرب دمشق. يبدو أن الشاعر قد صمّم على مغادرة بلاط سيف الدولة، ومن الجائز أنه كان على اتّصال بكافور، =

إِذَا تَـرَحَّـلْـتَ عَـنْ قـوْمٍ وَقَـدْ قَـدَرُوا
أَنْ لَا تُـفَـارِقَـهُـمْ فـالـرَّاحِـلُـونَ هُـمُ (١)
شَـرُّ الْـبِـلَادِ مَـكَـانٌ لَا صَـدِيـقَ بِـهِ
وَشَـرُّ مَـا يَـكْـسِـبُ الإِنْـسَـانُ مَـا يَـصِـمُ (٢)
وَشَـرُّ مَـا قَـنَـصَـتْـهُ رَاحَـتِـي قَـنَـصٌ
شُـهْـبُ الْـبُـزَاةِ سَـوَاءٌ فِـيـهِ والـرَّخَـمُ (٣)
بِـأَيِّ لَـفْـظٍ تَـقـولُ الـشِّـعْـرَ زِعْـنِـفَـةٌ
تَـجُـوزُ عِـنْـدَكَ لا عُـرْبٌ وَلَا عَـجَـمُ (٤)

= لذا راح يُهدّد سيف الدولة بتركه يندم على مفارقته إذا ترك جبل ضير عن يمينه متّجهاً إلى مصر، وجهته العتيدة المأمولة.

(١) يُخاطب الشاعر سيف الدولة ذاكراً سبب ارتحاله، فبيد الأمير الأمر فباستطاعته أن يُبقي على شاعره بإعادة اعتباره وتكريمه وإزالة الظلم عنه، فإن فعل يكون قد صان وجهه وامتنعت حجة الشاعر وإلّا فكأنه قد غادر نفسه بارتحال الشاعر عنه. ولا ريب أن الأمير أحسّ بفداحة ما ارتكب من خطأ.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٧. يصم: يعيب. في ساعات الحرج يُفتّش المرء على صديق صدوق يبثّه لواعج نفسه ويكشف له عن دفائن روحه، وفي حال عدم وجود نموذج كهذا فالأوجب الارتحال عن بلاد ليس فيها صديق ودود، وفي هذه الحالة يفقد المال سحره في القلوب، فرغم كثرة ما حصل عليه الشاعر من هبات وعطايا أسبغها عليه الأمير بهت بريقها حتى كاد أن يختفي كليًّا في تلك اللحظة، فقد انقلب عيباً.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٧. الشهب، الواحد أشهب: هو ما فيه بياض يُخالطه سواد. البزاة، الواحد باز: ضرب من جوارح الطير. الرخم، الواحد رخمة. يُخاطب الشاعر سيف الدولة أن من سوء حظّه أنه كان صيداً تساوت فيه البزاة التي تمتاز بالنبل رغم أنها من الجوارح الصيّادة بالرخم تلك الطيور التي تمتاز بلؤم الطباع وشراستها ودناءتها، فقد عامل الأمير سائر شعرائه معاملة متساوية، ولم يُميّز المتنبي عمّن سواه منهم.

(٤) الزعنفة: الساقط اللئيم من الناس. يسأل الشاعر مستنكراً على شعراء الأمير، إنهم ليسوا عرباً أقحاحاً، لذا فليست لهم بلاغة العرب وفصاحتهم إنهم من الأعاجم =

هٰـــذَا عِـــتَـــابُـــكَ إلَّا أَنَّـــهُ مِـــقَـــةٌ
قَـــدْ ضُـــمِّـــنَ الـــدُّرَّ إلَّا أَنَّـــهُ كَـــلِـــمُ(١)

كريم الكرام

أرسل شاعر إلى الأمير أبياتاً يذكر فيها فقره ويزعم أنه رآها في النوم، فقال أبو الطيب:

[الخفيف]

قَـدْ سَـمِـعْـنَـا مـا قُـلْـتَ فِـي الأَحْـلَامِ
وأَنَـلْـنَـاكَ بَـدْرَةً فِـي الْـمَـنَـامِ(٢)
وانْـتَـبَـهْـنَـا كَـمَـا انْـتَـبَـهْـتَ بِـلَا شَـيْ
ءٍ وَكَـانَ الـنَّـوَالُ قَـدْرَ الْـكَـلَامِ(٣)
كُـنْـتَ فِـي مَـا كَـتَـبْـتَـهُ نَـائِـمَ الْـعَـيْـ
نِ فَـهَـلْ كُـنْـتَ نَـائِـمَ الأَقْـلَامِ(٤)
أَيُّـهَـا الْـمُـشْـتَـكِـي إذَا رَقَـدَ الإعْـ
ـدَامَ لَا رَقْـدَةٌ مَـعَ الإعْـدَامِ(٥)

= الأوباش، لذا فهم لا يحسنون الإنشاد، كما أنهم يفتقدون إلى ملكة شعرية سليمة من العجمة، لذا فهم لا يُساوون شيئاً.

(١) المقة: المحبَّة. يُنهي الشاعر قصيدته ببيت يحمل شيئاً من الاعتذار المهذّب، إنه عتاب، والعتاب في كلام ودّ، فيه من الصراحة الشيء الكثير، وبذا يتمّ غسل القلوب بعبير الصدق ولون المحبَّة، وقد صاغه الشاعر درًّا يُزيّن به قصيدته بنظم بديع وأسلوب بليغ.

(٢) و (٣) البدرة: ألف دينار أو عشرة آلاف درهم. يسخر الشاعر ممن زعم أنه أنشأ قصيدته في المنام ليمدح سيف الدولة، وقد سمع المتنبي كلاماً لا يدلّ على أنه شعر، والمتنبي ينقد الشعر نقد عليم خبير، فإذا بما سمع لا يُساوي شيئاً، فإذا به يُنعم عليه ببدرة من المال في المنام، وبذلك كانت جائزته حلماً كادّعائه، وفجأة كانت صحوة، فإذا بالجائزة تُساوي الكلام المبتذل.

(٤) يُردف الشاعر بسخرية مؤلمة أن المسكين قد أنشأ قصيدته الرديئة فإذا بخطّه الرديء، فيسأله هل كتب قصيدته وهو في حال نوم؟

(٥) الإعدام: سوء الحال والفقر المدقع. يُخاطب الشاعر من يُصاحبه سوء الحال والفقر =